المحاضرة السابعة: تكملة للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

قانون التغيير الاجتماعي: يرى أن قانون التغيير الاجتماعي هو القانون الدوري للحضارة، وينطلق في شرح هذا القانون من حقيقة جوهرية في التاريخ البشري هي (دورة الحضارة) فكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين. ووفق هذا القانون فإن الحضارة تهاجر وتنتقل إلى بقعة أخرى تبحث عن شروطها، وهكذا تستمر في الهجرة وتستحيل خلالها إلى شيء آخر، بحيث تعد كل استحالة (تحول) تركيباً خاصاً للإنسان والتراب والوقت وقانون التغيير الاجتماعي عند مالك حدد نقطة الميلاد ونقطة الانحراف ونقطة الأفول لأي تغير اجتماعي، والحضارة عنده تمر بمراحل ثلاث: الميلاد، والأوج، والأفول وهي تتفق مع مراحل الروح، والعقل والغريزة. ويرى مالك أن القانون الدوري ليس حتمياً ويمكن للإنسان أن يتدخل في أي مرحلة من مراحله.

نطاق التغيير الاجتماعي: حدد بن نبي نطاق التغيير بتحديده للفئات التي يمسها التغيير وهذه الفئات هي:

1- الإنسان في تحوله من فرد إلى شخص.

2 - التراب في تحوله من الحالة الخام إلى التكييف الفني والتشريعي.

3 - المجتمع في تحوله من المجتمع البدائي إلى المجتمع التاريخي.

4 - الثقافة في تحولها من الإطار الغريزي إلى الإطار المربي.

5 - الزمن في تحوله من الحالة السائبة إلى الاستثمار الاجتماعي.

وبعد سرد نطاق التغيير الاجتماعي بشكل نقاط نذكر أن مالك بن نبي يرى أن الإنسان هو الجهاز الاجتماعي الأول وأنه (إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن المجتمع) ويعد التراب من عناصر التغيير الاجتماعي ويقصد به كل شيء على الأرض وفي باطنها، أما الزمن فإن فكرته تتحدد بمعنى التأثير والإنتاج، وبالنسبة للمجتمع فإن مالك يقسمها إلى نوعين مجتمع طبيعي ومجتمع تاريخي ويرى مالك أن المتجمع التاريخي هو نموذج المجتمع المتحرك .وبالنسبة للثقافة فإن مالك بن نبي يرى أو ينظر إليها عند صياغته لتعريفها من خلال سلوك الفرد، وأسلوب الحياة في المجتمع والعلاقة المتبادلة بين هذه العناصر التي تحدد سلوك الفرد بأسلوب حياة المجتمع، وأسلوب حياة المجتمع بسلوك الفرد، ويرى مالك أن الثقافة ذات علاقة وظيفية بعملية التغيير الاجتماعي، وحدد العناصر التي تحتويها الثقافة كالتالي :

1- المبدأ الأخلاقي

2- الذوق الجمالي

3- المنطق العملي

4- الصناعة (الفن التطبيقي)

هدف التغيير الاجتماعي وشروطه: العملية التغييرية عند مالك تستهدف بلوغ المجتمعات مرحلة الحضارة، وكي يتحقق هذا يرى (أن مشكلة الإنسان تبقى مفتاحاً في عملية التغيير الاجتماعي أو التحضر، أي أن معرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيراً من صنع محرك، أما شروط التغيير الاجتماعي عند مالك فإن الوعي بمنطق التاريخ والارتفاع بحلول المشكلات التي تواجه عملية بناء الحضارة إلى هذا المستوى ويرى من الشروط المهمة هو مواجهة مشكلاتنا بالتخطيط وأيضاً من الشروط المتعلقة بالتغيير الاجتماعي أن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، ومما يتصل بشروط التغيير الاجتماعي عند مالك فكرة التوجيه، أي توجيه الإنسان ومجالاته.

القائم بالتغيير الاجتماعي: الدور التغييري يقوم به القادة المصلحون أو زعماء الإصلاح بوصفهم الذين يحملون الكلمة الصادقة والفكرة الثاقبة، ويجسدونها عند ذلك يكون هؤلاء القادة سبباً لتحول التغيير من نطاق القوة إلى الفعل.

مفهوم التغيير" الإصلاح" في نظر الأفغاني:

كان هدف جمال الدين الأفغاني في بداية طريقه الإصلاحي مقاومة الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية مرتبطة بالرابطة الإسلامية كان هذا هدفه السياسي، كما كان يريد بث روح جديدة في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وتنقية العقيدة من الخرافات والأوهام، وقد تيقن الأفغاني أن لا سبيل إلى إيقاظ المسلمين من نومهم إلا بتعليمهم وتثقيفهم من خلال إنشاء مدرسة جديدة من الكتاب تحرك الشعور والهمم، ذلك أن عصر الأفغاني سادته ظاهرة التواكل الذي كبل العقول عن التفكير اتكالا على القضاء والقدر, وقد كان الأفغاني يكافح هذه الظاهرة بكل قوة، بإعطاء مفهوم جديد للقضاء والقدر يبين فيه أن القضاء والقدر يعدا من أصول الدين والعقائد في الإسلام وقد قام الاحتلال الأوربي بتأويلها وحصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: (إن المسلمين في فقر وتأخر في القوى الروحية الحربية والسياسية على سائر الأمم وحتى تفشى فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق وتفرقت آلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبل وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون, ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة)

ويظهر أن الأفغاني يريد أن يبعث في النفوس الشعور بالعزة والكرامة والمجد من خلال محاورة العقول وتهذيب النفوس مخلصا العقيدة الإسلامية من البدع، وهنا نلاحظ أن الشيخ" عبد الحميد ابن باديس" كتب مقالة شبيهة بمقالة الأفغاني يؤكد فيها الشيخ ابن باديس مثلما فعل الأفغاني على أن الإيمان بالسببية ووجوب استخدامها في العلم ضرورة لا مفر منها مع أن الإنسان ضعيف وهو في حاجة دائمة إلى ربه كما أنه ليس في الاعتماد على الله ما يعارض مع حثه على البحث والعمل وباختصار يذكر" الأفغاني" بشروط التغيير الاجتماعي والتي يرى فيها أن نيل الأمم السعادة والريادة لا يتم إلا بها:

الأول: صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، والإسلام يقتضي ذلك لأن أول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول على التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام.

الثاني: أن تكون نفوس الأمم طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق لأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني.

الثالث: أن تكون عقائد الأمم مبنية على البراهين والأدلة الصحيحة وأن تعمل عقولها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها.

الرابع: أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعلم سائر الأمم وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها.

الخامس: الجمع بين التعليم النظري والعملي لأن عصره سادت فيه العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية وهذا أحد أسباب تأخر الشرق حسب الأفغاني حيث يقول: كما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم أجبر أن يعمل بأعضاء جسده شيئا من العمل, فيعمل بالحدادة مثلا والنجارة والبناء، في المدرسة مع رفاقه وغير ذلك مما ينفعه جسديا أما محتوى التعليم فيرى بأن العلم ليس خيرا في ذاته أو شرا في ذاته وإنما التعليم الصحيح هو الذي يقود الأمم إلى السلام والرخاء والعدالة الاجتماعية لا للحرب والفناء.

ويرجع الأفغاني كل شيء إلى العامل البشري طبقا للآية الكريمة: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) سورة الرعد الآية11

وفي هذا الجانب الاجتماعي المهم نراه يتفق مع تلميذه"مُحَّد عبده" الذي أخذ عنه الكثير وتأثر به واهتم بهذا الجانب التعليمي طيلة حياته.

مفهوم التغيير" الإصلاح" في نظر مُحَّد عبده: اقتصر حدوث التغيير الاجتماعي على الإصلاح الديني التربوي ومن ثمة كانت نظرته أقل طموحا وأهلا من أستاذه الأفغاني ذلك أن الإصلاح أو بالأحرى التغيير الحقيقي لا يتم بمعزل عن الإصلاح والتغيير السياسي حسب جمال الدين الأفغاني، حقا إن النهوض بالجانب التربوي شيء ضروري في حداثته ولكن هل يمكن إعطاء طعام جيد ولذيذ لإنسان مريض لا يلائم طبعه فيزيد إلى علته حدة، وهل يمكن إعطاء الأسبقية للتربية والتعليم في القرن التاسع عشر بينما كانت البطون خاوية والأقدام حافية.

إذن: نستنتج مما سبق أن التعليم وحده لا يكفي وفكرة جمال الدين الأفغاني القائلة بإصلاح شامل كانت أبعد نظرا وأبعد مدلولا، خاصة إذا نظرنا اليوم إلى اغلب الدول الإفريقية والآسيوية التي مازالت في حاجة إلى وسائل العيش الضرورية قبل حاجتها إلى العلم والفلسفة، إلا أن الشيخان اتفقا على ضرورة الإصلاح لكن الاختلاف وقع في تحديد الطرق والوسائل، فالشيخ "جمال الدين الأفغاني" يطالب بالثورة ضد الاحتلال والاستبداد السياسي والروحي أما الشيخ" مُحَّد عبده" فقد اكتفى بالتعليم وإصلاحه ومحاربة البدع والخرافات.

مفهوم التغيير في نظر مُحَّد إقبال: من المفكرين الذين اهتموا بالتغيير مُحَّد إقبال حيث يرى أنّ الإسلام خاتم الرسالات السماوية تضمن على عنصر الثبات والمرونة والتطور معا، وأن عنصر الثبات يتمثل في عقيدة التوحيد، والتغيير في حركة الاجتهاد حيث يقول أن المجتمع القائم على التوحيد والطاعة لابد أن يوفق في وجوده بين مراتب الدوام والتغيير، فلابد أن يكون للجماعة مبادئ أبدية تنظم حياتها الجماعية وتضبط أمورها، لأن الأبدي الخالد يثبت أقدامنا في عالم التغير المستمر،

كما أنه يرى أننا "إذا فهمنا أن المبادئ الأبدية تستبعد كل إمكان للتغيير وهو في نظر القرآن آية من الآيات الكبرى الدالة على الذات الإلهية فإن هذا الفهم يجعلنا ننزع إلى تثبيت ما هو أساسا متغير في طبيعته، وإخفاق أوروبا في علم السياسة والاجتماع سببه الأخذ بمبادئ التغيير فقط وركود الإسلام في القرون الخمسة الأخيرة سببه الأخذ بمبدأ الثبات فقط.